رمة ومعشوقة الجماهير

امرأة «الحداثة» الشرقية

محمد بدوي *

في شتاء 1979، بحدود السابعة ليلاً، رأيت صباح أول مرة. كانت تقف في مدخل مبنى التلفزيون المصري، مع فرقة موسيقية. ملابسها شتائية أنيقة على أحدث طرز الموضة. سنها ضاحك ونظراتها ترحب بمن حولها. وبالطبع، كانت «السوبر ستار» الجميلة تعرف أن العيون تحدق بها بشغف وانبهار. لذلك كانت مبتسمة. كنت أرقبها، وأنا أقارن بين المرأة الواقعية الماثلة أمام عيني، وبين صورتها كما انطبعت في ذاكرتي من أفلام الأبيض والأسود، ولاحظت أنها تبدو نحيلة على عكس صورتها في الأفلام، حين كانت امرأة عصرية أنيقة مدلّه، لكنها مع ذلك شرقية. كانت كما تقول «كريمة» في فيلم «شارع الحب» تملك أسلحة «ذرية»، لن يملك البطل- عبد الحليم حافظ- أمامها غير التسليم. وهي تشير بالطبع إلى مناطق انوثتها الباذخة. بعبارة أخرى، كانت امرأة «الحداثة» الشرقية: جسد قوي بض فضلاً عن رشاقته فخور بـ «شرقيته»، مستعرض لها.

على مدى سنوات، أنتجت صباح لنفسها صورة محددة. المرأة الحسناء الأنيقة الفاتكة، ذات الصوت القوي الرنان الذي لا يحتاج إلى عنت أو جهد حين «يصدح». ينتشر ويملأ الفضاء، صوت كأنه تخلى عن أصول صنعة الغناء المستقرة، لقوته وعفويته وخصوصيته. صوت قوي منطلق لكنه أنيق مع وجه «صبوح» عذب يسرف في التعبير عن الداخل، فالانفعالات تبرق وتومض وتتسارع من دون جهد أو افتعال. وجه يلعب معك ويدعوك ويباغتك. ذلك واضح حين تقترب منه الكاميرا في لقطة «زووم» وتركز على الملامح في فرادتها. وأشير هنا إلى تركيز الكاميرا على تعبيرات وجهها في فيديو أغنية «الوطن الأكبر»، وفي كثير من أفلامها مثل «العتبة الخضراء» وأغاني فيلم «الأيدي الناعمة»، وبخاصة أغنية «الدوامة» وأغنية «بـ فتحة بـا»، وفي معظم أغانيها الجريئة التي لحنها بليغ حمدي باحتفالية موسيقاه، وجمله المباغتة. هذا هو امتياز صباح، جمال الصوت والصورة والانفعال، وجه تنجذب إليه الكاميرا وعيون الناس، وصوت «جبلي» منطلق، فيه نزق وطيش. ولحسن الحظ، توافق هذا مع صعود السينما وتحولها إلى فن أول بحيث أصبحت غذاء يومياً للناس في الإقليم، أو على الأقل للكتل الاجتماعية الأكثر استهلاكاً للفن مع هيمنة ايديولوجيا التحرر الوطني التي أحسنت استثمار أدوات الميديا: السينما، الراديو، الصحافة وحتى التلفزيون. ما حققته صباح، ومن قبلها ليلى مراد، وثيق الصلة بالسينما، بتضافر الصوت وحركة الجسد وتعبيرات الوجه لإنتاج معنى بعينه، وتأثير بعينه. قبل صباح، وفدت إلى القاهرة سعاد محمد ونجاح سلام، وقبلهما نور الهدى، ولكن مع صباح اختلف الأمر. كانت أصواتهن جميلة، وعملن أيضاً في السينما، لكن صباح منحت هبة الأنوثة وقوة الصوت وعذوبته وقدرته على التلون والايحاء والبث، مع خصيصة مهمة هي الرغبة في الاستعراض، حيث يشق الجسد القوي الفضاء، ليؤممه ويسيطر على العيون والآذان. وقد اكتملت الصورة التي رسمت كأنها حدثت دون جهد بتضاؤل المسافة بين الفن والواقع، بين المرأة الحقيقية وبين الممثلة والمغنية، أي بين صباح المرأة المحددة الواقعية وبين تبدياتها في الأغاني والأفلام؟ هذا الأمر جعل صباح ممثلة محدودة، لا تحب أن تفارق صورتها، لا تغادرها إلى صورة اخرى هي صورة الشخصية التي تلعب دورها. يتضح هذا حين نكون مع مشهد عابس أو حزين، لأن صباح الضاحكة المرحة المحبة لاستعراض المفاتن والملابس، رشيقة الحركة والإيماءة، لا ينبغي أن تكون بائسة أو مهلهلة الثياب. باختصار، نحن دائماً مع الشخص كما تم إنتاجه وصنعه لا مع شخصية في سرد درامي له علاماته وسياقاته. فقط حين تقترب الشخصية من صباح في جمالها ومرحها وحبها للحياة، نشعر أن الفنانة تحاكي الشخصية وتجسدها، ويبدو الأمر عفوياً جداً. صورة المرأة الفاتنة الاستعراضية النهمة للحياة والمرح تجسدت في الأغاني على نحو جلي في أغانيها الرائجة «زي العسل»، «عاشقة وغلبانة» و«عدى عليا وسلم». في هذه الأغاني كلمات جريئة تتسق مع جسد المغنية وصوتها، فتخلق صورة أنثى هجّامة. وليست الصورة نتاج الكلمات أو الموسيقى أو حتى حيال المغنية فقط، ولكن أيضاً الصوت

> رحلة كرنفالية صاخبة في الحياة والفن معاً

الذي وجد ضالته في الكلام والنغمة، فهو يتفجر شهوة ولذة. شيء ما كامن في هذا الصوت، في الرنين والبحة والمعدن الكاشف عن حسية مفرطة، وشبق للملموس والمادي. لذلك، لن يكون هذا الصوت الجرسي ملائماً للرومانتيكية المفرطة أو السنتمنتالية أو الميلودراما أو التطريب، أو استعراض الصنعة، لأنه صوت برغم أناقته عميق في جسدانيته. مع هذا، تأخذ صباح صورة مختلفة قليلاً عن هذه الصورة، فتبدو مغنية شرقية كلاسيكية، حيث تتحول هذه الحسية إلى عرامة في الصوت، لكن بعيداً عن النهنهة العاطفية، برغم أنها تكون بصدد تقاليد شجن، وأنا هنا اشير بالطبع إلى غنائها الفولكلوري، في العتابا والميجانا والمواويل وفي الدويتو الشهير لها مع وديع الصافي.

قد يرى البعض أن صباح لم تحسن إدارة مواهبها، لأنها أحبت الحياة بقدر حبها للفن، فمارست الفن دون خطة للإنجاز، وغنت لشعراء وموسيقيين أقل من رتبتها وشاركت في أفلام لم تضف لرصيدها شيئاً... باختصار لم تصبح مؤسسة قائمة بذاتها تدير وتخطط، لكن يبدو أن هذا كان أمراً طبيعياً ملائماً لمواهبها ومتسقاً مع رحلتها الكرنفالية الصاخبة في الحياة والفن معاً.

* شاعر وناقد مصري

يوم «الشحرورة» على «تلفزيون لبنان»

زكية الديراني

في ذكرى رحيلها الثالثة، يخصّص «تلفزيون لبنان» اليوم برمجة طويلة للصبوحة. تنطلق البرمجة صباحاً (09:00) وتختتم بعد منتصف الليل (02:00)، وتدور جميع البرامج في فلك الشحرورة من بداياتها الفنية وصولاً إلى رحيلها. جاءت هذه المبادرة بعدما أحبّ وزير الإعلام ملحم رياشي توجيه تحية خاصة لصباح هذا العام، فطلب من «تلفزيون لبنان» إلقاء الضوء على الراحلة عبر إستعادة أرشيفها الغني وأعمالها الفنية التي لا تزال راسخة في الوجدان. في هذا السياق، يشير مدير البرامج في القناة الرسمية حسن شقور لـ «الأخبار» إلى أن البرمجة ستحوي مجموعة مقابلات حول النجمة. ويوضح: «يتضمّن اليوم مقابلات أجراها عبد الغني طليس، وشادي ريشا وعبير شرارة، إضافة إلى البرنامج الصباحي «أحلى صباح» الذي يخصّص جميع فقراته للحديث عن المطربة». لكن ما هي الجوانب التي ستتطرق إليها تلك المقابلات؟ يجيب: «سيعرض «تلفزيون لبنان» أهمّ المشاريع التي أطلّت بها الصبوحة، ويجول فريق العمل على بداياتها في الستينات وصولاً إلى لحظة وفاتها. سيطلّ في المقابلات فنانون وأصدقاء رافقوا الشحرورة من بينهم: إحسان المنذر، وكلودا عقل (إبنة شقيقة صباح) وروجيه فغالي (شقيق صباح) والمخرج جورج خاطر...». ويتابع: «يحاول الضيوف الكشف عن جوانب جديدة في حياة صاحبة «ساعات ساعات»، بعدما ملّ المشاهد المعلومات المكررة نفسها. من هذا المنطلق، سيحاول اليوم «الشحروري» الطويل جذب المشاهدين بأرشيفها وأغانيها التي تحمل كل واحدة حكاية لافتة». بدأ التحضير للبرمجة قبل شهر، واللافت أن الضيوف من مختلف المجالات عايشوا فترات مهمّة في حياة الصبوحة. لكن لماذا لا تتّحد القنوات المحلية على اليوم «الشحروري» الطويل؟ يجيب شقور: «هذا الأمر يعود للمحطات والقائمين عليها. بالنسبة إلى «تلفزيون لبنان» فإنّ برمجته اليوم كلها لصباح».